بنته الصغيرة

ـ ٢ ـ

. . . وجاء من الغدِ أبو يحيى مالك بن دينار إلى المسجد ، فصلّى بالنَّاس ، ثُمَّ تحوَّل إلى مجلس درسه ، وتعَكَّفوا حوله[١] ؛ وكانوا إلى بقيَّة خَبره في لهفةٍ كأنَّ لها عُمراً طويلاً في قلوبهم ، لا ظمَأ ليلةٍ واحدةٍ .

وقال منهم قائلٌ : أيها الشيخ ! جُعلت فداك ! ما كان تأويل الحسن لتلك الآية من كلام الله تعالى ، وكيف رَجع الكلام في نفسك مرجع الفكر تتَّبعه ، وأصبح الفكر عندك عملاً تحذو عليه ، واتَّصل هذا العمل فكان ما أنت في وَرَعك و . . . ؟

فقطع الإمام عليه ، وقال : هوِّن عليك يا هذا ! إنَّ شيخك لأهوَنُ من أن تذهب في وصفه يميناً ، أو شمالاً ، وقد روى لنا الحسن يوماً ذلك الخبر الوارد فيمن يُعذَّب في النَّار ألف عام من أعوام القيامة ، ثمَّ يدركه عفو الله ، فيخرج منها ، فبكى الحسن ، وقال : « يا ليتني كنت ذلك الرَّجل ! » وهو الحسن يا بنيَّ ! هو الحسن . . . !

فضجَّ النَّاس ، وصاح منهم صائحون : يا أبا يحيى ! قتلتَنا يأساً ! وقال الأوَّل : إذا كان هذا ؛ فأوشك أن يعمَّنا اليأس والقنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ، ولا نأتي عملاً ينفع !

قال الشيخ : هوِّنوا عليكم ، فإنَّ للمؤمن ظنَّيْن : ظنّاً بنفسه ، وظنّاً بربه ؛ فأمَّا ظنُّه بالنَّفس فينبغي أن ينزل بها دون جَمَحاتِها[٢] ، ولا يفتأ ينزل ؛ فإذا رأى لنفسه أنَّها لم تعمل شيئاً ؛ أوجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائماً يدفعها ؛ وكلَّما أكثرتْ من الخير ؛ قال لها : أكثرِي . وكلَّما أقلَّت من الشرِّ ؛ قال لها : أقلِّي . ولا يزال هذا دأبه ودأبُها ما بقي ، وأمَّا الظَّنُّ بالله ؛ فينبغي أن يعلوَ به فوق الفتَرات ، والعِلل ، والآثام ، ولا يزال يعلو ؛ فإنَّ الله عند ظنِّ عبده به ، إن خيراً ؛ فله ، وإن

---

(١) « تعكفوا حوله » : استداروا .

(٢) « جمحاتها » : جمح الرجل : ركب هواه ، فلا يمكن ردُّه .

شراً ؛ فله . ولقد روينا هذا الخبر : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فَدُلَّ على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فهل له من توبةٍ ؟ قال : لا ! فقتله ، فكمَّل به مئة ! ثمَّ سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجلٍ عالم، فقال له: إنَّه قتل مئة نفسٍ. فهل له من توبةٍ ؟ قال : نعم ؛ ومن يَحول بينك وبين التَّوبة ؟ انطلِقْ إلى أرض كذا ، وكذا ؛ فإنَّ بها أناساً يعبدون الله عزَّ وجل ؛ فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنَّها أرضُ سوء .

فانطلق ، حتَّى إذا نصَّفَ الطريق أتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرَّحمة ، وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرَّحمة : جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنَّه لم يعمل خيراً قطُّ . فأتاهم ملكٌ في صورة آدميٍّ ، فجعلوه حكماً بينهم ، فقال : قِيسوا ما بين الأرْضَين ؛ فإلى أيِّهما كان أدنى ؛ فهو له . فقاسوا ، فوجدوه أدنى إلى الأرض الَّتي أراد ، فقبضته ملائكة الرَّحمة »(١) .

قال الشَّيخ : فهذا رجُلٌ لمَّا مشى بقلبه إلى الله ؛ حُسِبت له الخطوة الواحدة ، بل الشِّبرُ الواحد ؛ ولو أنَّه طوَّف الدُّنيا بقدميه ؛ ولم يكن له ذلك القلب ؛ لكان كالعظام المحمولة في نعشٍ ؛ قبرُها في المشرق هو قبرُها في المغرب ، وليس لها من الأرض ، ولا للأرض منها إلا معنىً واحدٌ لا يتغيَّر ، هو أنَّه بجملته ميِّتٌ ، وأنَّها بجملتها حُفرةٌ .

والإنسانُ عند النَّاس بهيئة وجهه ، وحِليته الَّتي تبدو عليه ، ولكنَّه عند الله بهيئة قلبه ، وظنِّه الَّذي يَظنُّ به ؛ وما هذا الجسم من القلب إلا كقشرة البيضة(٢) ممَّا تحتها ؛ فيا لها سخريةٌ أن تزعم القِشْرةُ لنفسها أنَّ بها هي الاعتبارَ عند النَّاس لا بما فيها ؛ إذ كان ما تحتويه لا يكون إلا فيها هي ، ومن ثمَّ تُبعدُ في حماقتها فتسأل : لماذا يرميني النَّاس ، ولا يأكلونني . . . ؟

إنَّ هذه الأخلاق الفاضلة في هذا الإنسان لا تجد تمامَ معناها إلا في حالةٍ بعينها من أحوال القلب ، وهي حالةُ خشوعه على وصفها الَّذي شرحته الآية الكريمة :

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) مسلم (٢٧٦٦) .

(٢) قشرة البيضة العليا اليابسة تُسمَّى القَيْض ـ بفتح القاف ، وسكون الياء ـ ، والقشرة الداخلة الملتزقة بالبياض تُسمَّى : الغِرْقِىء ـ بكسر الغين ، والقاف ـ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ؟﴾ [الحديد : ١٦] .

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ باللهِ والحقِّ معاً ، وهي كلُّها في خشوع القلب لهذين ، فإنَّ من القلب مخارجَ الحياة النَّفسيَّة كلَّها .

قال الشَّيخ : وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية ، واسْتَنَنْتُ بها ، مضيت أعيش من الدُّنيا في تاريخ قلبي ، لا في تاريخ الدُّنيا ، وأدركت من يومئذٍ : **أن ليس حفظ القرآن حِفظه في العقل ، بل حِفْظُه في العمل به** ؛ فإنْ أنت أثبتَّ الآية منه ، وكنت تعمل بغير معناها ، وتعيش في غير فضيلتها ، فهذا ـ ويحك ـ نسيانُها ، لا حفظها ؛ وقد كان قومُنا الأوَّلون بمعانيه كالشَّجرة الخضراء النَّامية ؛ فيها ورَقُها الأخضر ، وزهرها ، وثمرُها ، وعلى ظاهرها حياةُ باطنها ، فلمَّا ثبت النَّاسُ على الشَّكل وحدَه ، ولم يبالوا القلبَ ، وأحواله ، أصبحوا كالشَّجرة اليابسة ، عليها ورقُها الجافُّ ، ليس في بقائه ، ولا سقوطه طائلٌ .

ما أصبحتُ ، ولا أمسيتُ منذ حفظتُ تفسيرَ الآية إلا في حياةٍ منها . وهذه الآية هي دلَّتني بمعانيها : أنْ ليست الحياةُ الأرضيَّة شيئاً إلا ثورةَ الحيِّ على ظلم نفسه ، يَستكفُّ عنها أكثرَ ممَّا يَستجِرُّ لها ، والنَّاس ـ من شقائهم ـ على العكس ، يستجرُّون أكثرَ ممَّا يستكِفُّون ، وإنَّما السَّعيدُ مَن وجَدَ كلماتٍ روحانيَّةً إلـٰهيَّةً ، يعيش قلبه فيهنَّ ؛ فذاك لا يعمل أعمالَه كما يأتي ، ويتَّفق ، بل يحذو على أصلٍ ثابتٍ في نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل ، ومن ثَمَّ لا يكون جهادُه مُراغمةً[1] ، أو خضوعاً في سبيل الوجود ، كالحيوان ، بل في سبيل صِحَّة وجوده ؛ ولا يكون غرضُه أن يُلابسَ الحياةَ كما تأخذه هي ، وتَدعُه ، بل أن يحيا في شرف الحياة على ما يأخذها هو ، ويَدعُها .

إنَّ الشَّقاء في هذه الدُّنيا إنَّما يجرُّه على الإنسان أن يعملَ في دفع الأحزان عن نفسه بمقارفتِه الشَّهواتِ ، وبإحساسِه ، وغرورِ القلب . وبهذا يُبْعِدُ الأحزانَ عن نفسه ليجلِبَها على نفسه في صوَرٍ أخرى !

* * *

قال الشَّيخ : وكان ممَّا حفظته من تفسير الحسن قوله :

---

(١) « مراغمة » : مغاضبة .

إنَّ كلَّ كلمة في الآية تكاد تكون آيةً ، **وليست الكلمةُ في القرآن كما تكون في غيره ، بل السُّموُّ فيها على الكلام ، أنَّها تحمل معنىً ، وتُومئ إلى معنىً ، وتَستتبعُ معنىً ؛ وهذا ما ليس في الطَّاقة البشريَّة ، وهو الدَّليل على أنَّه** ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود : ١] (١) .

يقول الله تعالى : ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد : ١٦] .

﴿۞أَلَمْ يَأْنِ﴾ هذه الكلمة حثٌّ ، وإطماعٌ ، وجدالٌ ، وحُجَّةٌ ؛ وهي في الآية تصرِّح : أنَّ خشوع القلب الَّذي تلك صفتُه هو كمالُ الإيمان ، وأنَّ وقت هذا الخشوع هو كمال العمر ، وكيف يعرف المؤمن : أنَّه (سيأتي) له أن يعيشَ ساعةً ، أو ما دونها ؟ إذاً فالكلمة صارخة ، تقول : الآن ، الآن قبل ألا يكون آنٌ ! أي : البدارَ(٢) ! البدارَ ! ما دمت في نَفَسٍ من العمر ، فإنَّ لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحيُّ ؟ وإذا فني وقت الإنسان ؛ انتهى زمن عمله ، فبقي الأبدَ كلَّه على ما هو ، ومعنى هذا : أنَّ الأبد للمؤمن الَّذي يدرك الحقيقة إنْ هو إلا اللَّحظة الرَّاهنة من عمره ؛ التي هي (الآن) ، فانظر ـ ويحك ! ـ وقد جُعِل الأبد في يدك ، انظر كيف تصنع به ؟!

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره ، على كثرة المعاني ، ثمَّ قال : ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهذا كالنَّص على أنَّ غير هؤلاء لا تخشع قلوبُهم لذكر الله ، ولا للحقِّ ، فلا تقوم بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشَّريعة ، وعالِمُهم وجاهلُهم سواءٌ . لا يخشعان إلا للمادَّة ، وكأنَّ إنسانهم إنسانٌ تُرابيٌّ ، لا يزال يضطرب على مَكْر اللَّيل والنَّهار بين طرفين من الحيوان : عَيشه ، وموته ، وما تقسو الحياة قسوتها على النَّاس إلا بهم ، وما ترِقُّ رقتها إلا بالمؤمنين .

---

(١) طريقتنا في اكتناه إعجاز القرآن : أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهاتٌ عِدَّة كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية ، وفيما جئنا به من تفسير آياتٍ سبقت في المقالات الأخرى ؛ فالبحث في فَهْم القرآن يجب أن يكون في اللفظة ، ووجه اختيارها ، وسياق تركيبها ، وما تدلُّ عليه في كلِّ ذلك ، وما يدلُّ كلُّ ذلك بها ؛ وقد بسطنا هذا في كتابنا : « إعجاز القرآن » . (ع) .

(٢) « البدار » : السرعة ، والعجلة .

وجعل الخشوع للقلوب خاصَّة ؛ إذ كان خشوعُ القلب غير خشوع الجسم ، فهذا الأخير لا يكون خشوعاً ، بل ذلاً ، أو ضَعَةً ، أو رياءً ، أو نفاقاً ، أو ما كان ؛ أمَّا خشوع القلب ؛ فلن يكون إلا خالصاً مخلصاً مَحض الإرادة .

واشترط « القلب » كأنَّه يقول : **إنَّما القلب أساس المؤمن ، وإنَّ المؤمن ينبُع من قلبه ، لا من غيره متى كان هذا القلب خاشعاً لله ، وللحق ؛ فإن لم يكن قلبه على تلك الحال ؛ نَبع منه الفاسق ، والظَّالم ، والطَّاغية ، وكلُّ ذي شرٍّ** . ما أشبه القلب تتفرع منه معاني الخُلق ، بالحبَّة تنسَرح منها الشَّجرة ؛ فخذ نفسك من قلبك كما شئت ؛ حُلواً من حلوٍ ، ومرّاً من مُرٍّ .

وخشوع القلب لله وللحقِّ معناه : السُّموُّ فوق حبِّ الذَّات ، وفوق الأثرة ، والمطامع الفاسدة ؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصَّحيحة ، ويجعلها في قانونين ، لا قانونٍ واحدٍ ، ومتى خشع القلب لله ، وللحقِّ ، عَظمت فيه الصَّغائر من قوَّة إحساسِه بها ، فيراها كبيرةً كبيرةً ؛ وإن عميَ النَّاس عنها ، ويراها ، وهي بعيدةٌ منه بمثل عين العقاب : يكون في لوحِ الجوِّ ، ولا يغيب عن عينه ما في الثرى .

وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطُّغيان ، والقسوة ، فتقيُّد خشوعِ القلب ﴿ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، هو نفسه نفيٌ لعبادةِ الهوى ، وعبادةِ الذَّات الإنسانيَّة في شهواتها ، وما الشَّهوة عند المخلوق الضَّعيف إلا إله ساعتها . فيا ما أحكم ، وأعجب قول النَّبيِّ ﷺ : « لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السَّارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] . جعل نَزْعَ الإيمان موقوتاً « بالحين » الَّذي تُقتَرف فيه المعصية ؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشَّقيِّ هو إله ذلك « الحين » .

والخشوع لِما ﴿ نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ هو في معناه نفيٌ آخر للكبرياء الإنسانيَّة الَّتي تُفسد على المرء كلَّ حقيقةٍ ، وتخرج به من كلِّ قانونٍ ؛ إذ تجعل الحقائق العامَّة محدودةً بالإنسان ، وشهواته ، لا بحدودها هي من الحقوق ، والفضائل .

ويَخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانيَّة ، وإلزامُها الخيرَ ، والحقَّ دون

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) .

غيرهما ، وقهرُها للذَّات ، وشهواتها ، وجعلُها الكبرياءَ الإنسانيَّة كبرياءً على الدَّنايا ، والخسائس ، لا على الحقوق ، والفضائل ؛ وإذا تقرَّر كلُّ ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السَّكينة في النَّفس ، ومحو الفوضى منها ، وجعلِ نظامها في إحساس القلب وحدَه ؛ فيحيا القلبُ في المؤمن حياةَ المعنى السَّامي ، ويكون نبضُه علامةَ الحياة في ذاتها . وخشوعُه لله ، وللحقِّ علامةَ الحياة في كلِّها .

وقال : ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ كأنَّه يقول : إنَّ هذا الحقَّ لا يكون بطبيعته ، ولا بطبيعة الإنسان أرضيّاً ، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرَّره النَّاس بعضُهم على بعضٍ ؛ لم يجاوز في ٱرتفاعه رأس الإنسان ، وأفسدته العقول ؛ إذ كان الإنسان ظالماً متمرِّداً بالطَّبيعة ، لا تحكمه من أوَّل تاريخه إلا السَّماءُ ، ومعانيها ، وما كان شبيهاً بذلك ممَّا يجيئه من أعلى ، أيْ بالسُّلطان ، والقوَّة ، فيكون حقّاً « نازلاً » متدَفِّعاً كما يتصوَّب الثِّقلُ من عالٍ ، ليس بينه وبين أن يَنفُذَ شيءٌ .

والخضوعُ لما نزل من الحقِّ ينفي خشوعاً آخر هو الَّذي أفسد ذاتَ البينِ من النَّاس ، وهو الخشوعُ لما قام من المنفعة وانصراف القلب إليها بإيمان الطَّمع ، لا الحقِّ .

وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقَّق العدلُ ، والنَّصفة بين النَّاس ، فيكون العدل في كلِّ مؤمنٍ شعوراً قلبيّاً ، جارياً في الطَّبيعة ، لا مُكلَّفاً من العقل ؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادةٌ ثابتةٌ على الحقِّ في كلِّ طريقٍ ، لا إرادةٌ لكلِّ طريقٍ ، وتستمرُّ هذه الإرادة متسقةً في نظامها مع إرادة الله ، لا نافرةً منها ، ولا متمردةً عليها ، وهذا وذلك يثبِّت القلب مهما اختلفت عليه أحوال الدُّنيا ، فلا يكون من إيمانه إلا سُموُّه ، وقوَّته ، وثباته . وينزل العمرُ عنده منزلة اللَّحظة الواحدة ، وما أيسرَ الصَّبرَ على لحظة ! ما أهون شرَّ « الآن » إن كان الخيرُ فيما بعده !

ألمْ يأنِ ؟ ألم يأنِ ؟ ألم يأن . . .

* * *

قال الشَّيخ : وكان الحسنُ في معانيه الفاضلةِ هو هذه الآية بعينها ؛ فما كانت حياته إلا إسلاميَّةً كهذا الكلام الأبيض المشرق ؛ الَّذي سمعتُه منه ؛ شعاره أبداً : « **الآن قبل ألا يكون آن** » وإمامُه : « **خُذ نفسَك من قلبك** » وطريقته : « **شرفُ الحياة لا الحياةُ نفسها** » .

وكان يرى هذه الحياةَ كوقعة الطَّائر ؛ هي عملُ جناحين مُسْتوفِزَين[١] أبداً لعملٍ آخر هو الأقوى ، والأشدُّ ، فلا ينزلان بطائرهما على شيءٍ إلا مَطوِيين على قدرة الارتفاع به ، ولا يكونان أبداً إلا هَفهافين خفيفين على الطَّيران ؛ إذ كانا في حكم الجوِّ ، لا في حكم الأرض .

وآلة الوقوع والطَّيرانِ بالإنسان شهواته ، ورَغباته ، فإن حطَّته شهوةٌ لا ترفعه ؛ فقد أوْبقته[٢] ، وأهلكته ، وقذفت به ليؤخذ .

لقد روينا عن النَّبيِّ ﷺ : « لا يَبلغُ العبدُ أن يكون من المتَّقين حتى يَدعَ ما لا بأسَ به حذراً ممَّا به بأس »[٣] ، وهذا ضربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلُّ له : يَدعُ أشياء كثيرةً لا بأس عليه فيها لو أتاها ، ليقوَى على أن يدعَ ما فيه بأس ، **فإنَّ الَّذي يترك ما هو له يكون أقوى على ترك ما ليس له** .

والنَّفس لا بدَّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرة ، وتاركةٌ أداتها ، فقِوامُ نظامها في الحياة الصَّحيحة أن تكون كلَّ يومٍ كأنَّها ذهبتْ إلى الآخرة ، وجاءت ، وتلك هي الحكمة فيما فرضته الشَّريعة الإسلاميَّة من عبادةٍ راتبةٍ ، تكون جزءاً من عمل الحياة في يومها ، وليلتها ، فإذا لم تكن النَّفسُ في حياتها كأنَّها دائماً تذهب إلى مصيرها ، وترجع منه ؛ طمسها الجسمُ ، وحبسها في إحدى الجهتين ، فلم يبق لها فيه إلا أثرٌ ضئيلٌ لا يتجاوز النُّصح ، كاعتراض المقتول على قاتله يحاول أن يَرُدَّ السَّيفَ بكلمةٍ . . . ! وبذلك يتضاعف الجسمُ في قوَّته ، ويشتدُّ في صولته ، ويتصرَّف في شهواته ، كأنَّ له بطنين يجوعان معاً . . . فتسْتَهلكُ شهواتُ المرء دينه ، وتقذف به يميناً ، وشمالاً على قصدٍ ، وعلى غير قصدٍ ، وتمضي به كما شاءت في مَدْرجةٍ مَدْرجةٍ من الشَّرِّ .

ومثلُ هذا المسرف على نفسه لا يكون تمييزه في الدِّين ، ولا إحساسه بالخير ، إلا كذلك السِّكِّير ؛ الذي زعموا : أنَّه أراد التَّوبة ، وكانت له جَرَّتان من الخمر ،

---

(١) « مستوفزين » : استوفز : نهض على ركبتيه ، وتهيأ للوثوب أو المضي . فهو مستوفز .

(٢) « أوبقته » : أهلكته .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥١) وابن ماجه (٤٢١٥) والحاكم (٤/ ٣١٩) .

فلمَّا اتَّعظ ، وبلغ في النَّظر إلى نفسه ، وحظِّ إيمانه ، وأراد أن يطيعَ الله ، ويتوب ؛ نظر إلى الجرَّتين ، ثمَّ قال : أتوبُ عن الشُّرب من هذه حتَّى تفرغَ هذه . . . !

* * *

قال الشَّيخ : ثمَّ إنِّي تبتُ على يد الحسن ، وأخلصت في التَّوبة ، وصَحَّحْتها ، وعلمتُ من فعله ، وقوله : أنَّ حقيقة الدِّين هي كبرياء النَّفس على شرِّها ، وظلمِها ، وشهواتها ، وأنَّ هذه الكبرياء القاتلة للإثم ، هي في النَّفس أختُ الشَّجاعة القاتلة للعدوِّ الباغي يفخر البطلُ الشُّجاعُ بمبلغه من هذه ، ويفخر الرَّجل المؤمن بمبلغه من تلك ، وأنَّ خشوع القلب هو في معناه حقيقةً هذه الكبرياء بعينها .

وحدّثتُ الحسنَ يوماً حديث رؤياي[1] ، وما شُبِّه لي من عملي السَّيِّئ ، وعملي الصَّالح ، فاستدْمَعَتْ عيناه ، وقال :

إنَّ البنتَ الطَّاهرة هي جهادُ أبيها ، وأمِّها في هذه الدُّنيا ، كالجهاد في سبيل الله ، وإنَّها فوزٌ لهما في معركةٍ من الحياة ، يكونان هما ، والصَّبْر ، والإيمان في ناحيةٍ منها قبيلاً[2] ، ويكون الشَّيطان ، والهمُّ ، والحزن في الجهة المناوِحةِ[3] قبيلاً آخر .

إنَّ البنتَ هي أمٌّ ، ودارٌ ، وأبَوَاها فيما يكابدان من إحسانِ تربيتها ، وتأديبها ، وحياطتها ، والصَّبر عليها ، واليقظة لها ، كأنَّما يحملان الأحجارَ على ظهرَيْهما حجراً حجراً ، ليَبْتنيا تلك الدَّار في يوم يومٍ إلى عشرين سنةً ، أو أكثر ، ما صَحِبَته ، وما بقيت في بيته .

فليس ينبغي أن ينظر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنتُه ، ثمَّ أمُّ أولادِها ، ثمَّ أمُّ أحفاده ؛ فهي بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقُّها عليه أكبرُ من الحقِّ ، فيه حُرْمتها وحرمة الإنسانيَّة معاً ؛ والأب في ذلك يُقرض اللهَ إحساناً ، وحناناً ، ورحمةً ، فحقٌّ على الله أن يوفيَه من مثلها ، وأن يُضعِفَ له .

---

(١) ذُكِرَتِ الرؤيا في القسم الأول من هذه المقالة . (ع) .

(٢) « قبيلاً » : جماعة .

(٣) « المناوحة » : المقابلة .

والبنت ترى نفسَها في بيت أهلها ضعيفةً كالمنقطعة ، وكالعالة ، وليس لها إلا اللهُ ، ورحمةُ أبويها ؛ فإن رَحِماها ، وأكرماها فوقَ الرَّحمة ، وسرَّاها فوق الكرامة ، وقاما بحقِّ تأديبها ، وتعليمها ، وتفقيهها في الدِّين ، وحَفِظا نفسها طاهرةً ، كريمةً ، مسرورةً ، مؤدَّبةً ؛ فقد وضعا بين يَدي الله عملاً كاملاً من أعمالهما الصَّالحة ، كما وضعاه بين يدي الإنسانيَّة ؛ فإذا صارا إلى الله كان حقَّاً لهما أن يجدا في الآخرة يميناً ، وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله ، وكرمه ، كما قال رسول الله ﷺ : « من كان له ابنةٌ ، فأدَّبها ، فأحسنَ تأديبها وغَذَاها ، فأحسن غِذاءَها ، وأسبغ عليها من النِّعمة الَّتي أسبغَ اللهُ عليه ، كانت له مَيْمَنةً ومَيْسَرةً من النَّار إلى الجنَّة »[1] .

فهذه ثلاثٌ لا بدَّ منها معاً ، ولا تجزِئ واحدةٌ عن واحدةٍ في ثواب البنت : تربية عقلها تربية إحسانٍ ، وتربية جسمها تربية إحسانٍ ، وإلطافٍ ، وتربية روحها تربية إكرامٍ ، وإلطافٍ ، وإحسانٍ .

* * *

قال الشَّيخ : والله أرحمُ أن تضيع عنده الرَّحمة ، والله أكرمُ أن يضيع الإحسان عنده ، والله أكبر . . .

وهنا صاح المؤذِّن : الله أكبر .

فتبسَّم الشيخ ، وقام إلى الصَّلاة .

* * *

(١) انظره في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٨) وكنز العمال (٤٥٣٩١) .